

نقد العقل الإيديولوجي عند ناصيف نصار

Nassif Nassar's Criticism of the ideological mind  
Critique de l'esprit idéologique de Nassif Nassar

تواتي فطيمة<sup>1</sup> ، جاري جويدة<sup>2</sup>

تاريخ النشر: 2023/12/15

تاريخ القبول: 2022/12/28

تاريخ الإرسال: 2022/06/25

ملخص:

تحاول هذه الورقة إن تبحث في أحد مقومات مشروع ناصيف نصار الذي يولي فيه عناية أساسية لنقد التفكير الإيديولوجي نقدا عقلانيا، ما يتطلب التمييز الصارم بين الفلسفة والإيديولوجيا بالاعتماد على منهج الجدلية الواقعية، الذي يقدم الواقع على الفكر أو الوجود المادي عن الوعي العقلي لكشف البعد الإيديولوجي في الفعل الفلسفي. وبالرغم من النقد الموجه للإيديولوجيا فإن نصار يدافع عن وجودها، ويبطل أي زعم يرى بأفولها فهي خالدة خلود التفكير الإنساني.

الكلمات المفتاحية: ناصيف نصار ؛ الإيديولوجيا ؛ النقد ؛ الواقعية الجدلية؛ العقل الإيديولوجي

**Abstract :**

This paper attempts to examine one of the components of Nassif Nassar's project, in which he pays basic attention to rationally critiquing ideological thinking, which requires a strict distinction between philosophy and ideology based on the realistic dialectic approach, which presents reality over thought or material existence over mental awareness to reveal the ideological dimension in The philosophical act. Despite the criticism directed at ideology, Nassar defends its existence, and invalidates any claim that sees its demise, for it is the immortal and immortal of human thought.

**Keywords:** Nassif Nasser, ideology, criticism, dialectical realism, ideological mind

**Résumé :**

Cet article tente d'examiner l'une des composantes du projet de Nassif Nassar, dans lequel il accorde une attention fondamentale à la critique rationnelle de la pensée idéologique, ce qui nécessite une distinction stricte entre philosophie et idéologie basée sur l'approche dialectique réaliste, qui présente la réalité plutôt que la pensée ou l'existence matérielle. sur la conscience mentale pour révéler la dimension idéologique dans L'acte philosophique. Malgré les critiques dirigées contre l'idéologie, Nassar défend son existence, et invalide toute affirmation qui voit sa disparition, car c'est l'immortel et l'immortelle de la pensée humaine.

**Mots-clés :** Nassif Nasser, idéologie, critique, réalisme dialectique, esprit idéologique

\*المؤلف المراسل : فطيمة تواتي

<sup>1</sup> TOUATI Fatima, Université Abou Kacem Saaddalah- Alger 2, : Algerie, fatima.touati@univ-alger2.dz

<sup>2</sup> DJARI Djaouida, Université Abou Kacem Saaddalah- Alger 2, : Algerie, djaouidadjari@yahoo.fr

مقدمة:

إن المتأمل للواقع العربي اليوم يرى أنه واقع متأزم من عدة نواحي، وهذا ما شكل هاجساً للمفكرين العرب، فنجدهم في محاولة وسعي مستمر من أجل تحقيق النهضة. ومن بينهم المفكر اللبناني ناصيف نصار صاحب مشروع الاستقلال الفلسفي؛ والذي قدم العديد من المفاهيم في فكرنا المعاصر، إذ يمكننا عن طريق تحليلاته الفلسفية إن يقول أننا بصدد نقلة هامة في فكرنا العربي المعاصر.

إن مشروع الإستقلال الفلسفي يقوم على مفاهيم عدة من قبيل الإستقلال، الإبداع، النهضة الثانية، النقد، العقلانية، الإيديولوجية هذه الأخيرة التي تشكل محوراً أساسياً بل مركزياً ضمن اهتمامات نصار الفكرية، هذا الاهتمام كان استجابة لمقتضيات الواقع الاجتماعي العربي و اللبناني.

وقد حاولنا في هذه الدراسة الوقوف على حقيقة الظاهرة الإيديولوجية بالإجابة على إشكالية مفادها: ماهي آليات الفكر الإيديولوجي عند ناصيف نصار؟ وفي ثنايا هذه الإشكالية حاولنا الإجابة على جملة من المشكلات الفرعية أهمها: ماذا يقصد نصار بالعقل الإيديولوجي وما علاقته بالعقل الفلسفي؟ وما السبيل إلى مجتمع جديد لا تعيق فيه الإيديولوجية الازدهار الفلسفي؟ وبعد نقد التفكير الإيديولوجي هل يمكننا القول بنهايته وزواله؟

وللإجابة على هذه الإشكالية ارتأينا لوضع مجموعة من الفرضيات من أجل البحث فيها وهي:

1/ قضايا الفكر الإيديولوجي هي بالدرجة الأولى قضايا إجتماعية، ترتبط بالمنفعة مما يعرقل عمل العقل. والفلسفة بإعتبارها تفكير عقلائي تجذ نفسها في صراع مع هذا النوع من التفكير.

2/ إن الإنتاج الإيديولوجي يتضمن نواة فلسفية، إلا إن العلاقة بينهما تحتاج إلى تحديد طبيعة كل منهما ومعرفة شروط ومقتضيات إستقلال القول الفلسفي عن الإيديولوجي.

3/ إن نقد أي تصور خاصة التصور الإيديولوجي قد يوحي برفضه، لكن عندما نتعامل مع مفكر كناصر نصار فإن المعنى يأخذ منحى آخر لأنه يعتمد على النقد العقلائي ومناهجه الحديثة، فيجد نفسه أمام مهمة صعبة وهي التعامل مع النظرة الإيديولوجية تعاملاً تحليلياً ينتهي بالإعتراف عوض الرفض الغير مبرر.

سيعمل نصار على تفعيل هاته الفرضيات من خلال نقد وتحليل كل من الإيديولوجيا وأبعادها وعلاقتها بالفلسفة لأن التفكير في الظاهرة الإيديولوجية هو تفكير في الواقع الاجتماعي.

## 1- مفهوم الإيديولوجيا

نبدأ أولاً بضبط مفهوم الإيديولوجيا عند نصار وبما أنه قد وقعت عدة مجادلات معرفية حول هذا المفهوم، يحاول ناصف نصار تقديم تعريف يستوفي المعنى، مع الإشارة إلى أنه تعريف لا مغلق ولا نهائي. يقول: >> إن الإيديولوجية نظام من أفكار إجتماعية يرتبط بمصلحة جماعة معينة، ويشكل أساساً لتحديد أو تبرير فاعليتها الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة << (نصار ن.، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، 1979، صفحة 43) يبدو من خلال التعريف إن هذا النظام له عدة مكونات بحيث:

- تعتبر الايديولوجية نظام جماعي والجماعة هنا تصدق على القبيلة، الدولة، الأمة، الطائفة: كل ماله مقومات مشتركة أي تختص بمجتمع معين.

- جملة من التصورات التي تشكل نسقا متكاملا فقد تعبر عن أذكار ومفاهيم ومقومات تنسجم فيما بينها، محكمة الترابط فتشكل كلا.

- هذا النسق يعبر عن نفسه تاريخيا من خلال الدفاع عن أفكار الجماعة بغض النظر عن مدى صحتها.

- تدخل الإيديولوجية في علاقة تفاعل مع مختلف مشكلات المجتمع (سياسة، أخلاقية، إقتصادية ...)، ولذلك يصعب تحديد مصدر التفكير الإيديولوجي، فلا يمكن رده إلى مصدر واحد كالعقل لأنه نتاج مختلف القوى الذاتية، بل يرفض هذا التفكير الخضوع للعقل لأنه يعبر عن مصلحة الجماعة، قد يصل هذا الرفض إلى حد صراع العقل مع الإيديولوجية لكشف طبيعتها.

وإذا قلنا إن طبيعة التفكير الإيديولوجي أنه مصلحي، فهل يتعارض مع التفكير العقلاني؟

يؤكد نصار على ضرورة الفلسفة في حياتنا مقابل كل أنواع التفكير بالأخص الإيديولوجيا ومنه سنكون أمام نمين متميزين من التفكير:

أ- التفكير الفلسفي الذي هو تفكير عقلاني وكوني غايته الحقيقة ولا شيء غيرها.

ب- التفكير الإيديولوجي: هو تفكير مصلحي، قومي، يقوم على التبرير، تعتبر الحقيقة في هذا النوع من التفكير وسيلة وليست غاية في حد ذاتها. (مقورة، 2015، صفحة 17)

وقد وجدت الفلسفة نفسها في صراع تاريخي مع أشكال مختلفة من الفكر اللاعقلي، يقول نصار: >> لقد تعين على الفلسفة إن تواجه وتجاهه عبر تاريخها الطويل، أنواعاً من الفكر العقائدي، وفي العصور القديمة كانت علاقتها الجدلية

مع الفكر الأسطوري بأشكاله المختلفة، وفي العصور الوسطى كانت معاناتها الجدلية مع الفكر الديني ... وفي هذا العصر يبدو إنَّ المعركة الرئيسية هي مع الفكر الإيديولوجي <<. (نصار ن.، الفلسفة في معركة الإيديولوجية (أطروحات في تحليل الإيديولوجية وتحرير الفلسفة من هيمنتها، 1986، صفحة 8)

أي أنها تؤدي رسالة هادفة في الوقت الذي تخوض فيه معركة ضد أطراف متعددة تشترك جميعها في رفض الفلسفة. فالمسألة الأولى في قضية الحداثة الفلسفية حسب نصار، تتحدد في كيفية إنتزاع حقوق التفلسف الحر من السلطات الدينية والسياسية التي تكره بطبيعتها نور الفلسفة. ولن يتأتى لها تأدية دورها إلا إذا إستطعنا التمييز بين مجالات عدة (الفلسفة، التاريخ، الدين ... ) وبخاصة الإيديولوجية إنَّ المطلوب في نظر نصار هو تكوين إتجاه نظري قادر على استيعاب العلاقات بين الفلسفة والإيديولوجية وفق منهج جديد وهو ما يعرف بـ << الواقعية الجدلية >>.

## 2- الواقعية الجدلية:

وهي عبارة عن منهج منفتح يقوم على الشك المنهجي والنقد والتحليل والانفتاح، وقد إعتمه نصار لتحديد المضامين المفاهيمية للإيديولوجية، تنظر هذه الأخيرة للواقع الاجتماعي نظرة كلية وتتعامل معه على أنه واقعا متحركا ديناميكيا، تقدم هذا الواقع عن الفكر أو الوجود المادي عن الوعي العقلي، فنقطة إنطلاقها تتمثل في محاولة تفسير التحولات وتحليل العلاقات الاجتماعية واستيعابها نقديا، وكشف مختلف التناقضات الموجودة في البنية الاجتماعية، تعمل على كشف العلل، ومحكمة الواقع القائم فهي في نظر نصار تمكن الجماعة من تفعيل ماضيها.

يقوم هذا المنهج على الفعل الفلسفي والممارسة لكشف البعد الإيديولوجي في الفعل الفلسفي.

يحاول نصار إنَّ يبدع فكرا إجتماعيا تاريخيا مستنيرا بمبدأ التجاوب مع مشكلاتنا الكبرى وحاجاتنا الاجتماعية.

ومنه فالواقعية الجدلية عنوان اطلقه نصار على جهده الفلسفي؛ وهو إتجاه جديد ضروري يستوعب العلاقات بين الفلسفة والإيديولوجية فلا يرد الفلسفة إلى الإيديولوجية ولا يفصل بينهما فصلا تاما، حيث إنَّ هناك تداخل بينهما لكن ليس لدرجة التماثل إذ يقول: << الإيديولوجية لا تستطيع إنَّ تنقلب فلسفة بالمعنى الصحيح، والفلسفة لا تستطيع إنَّ تحل محل الإيديولوجية >>. (نصار ن.، الفلسفة في معركة الإيديولوجية (أطروحات في تحليل الإيديولوجية وتحرير الفلسفة من هيمنتها، 1986، صفحة 8)

أي إن الاختلاف بين حقيقة الإيديولوجية وماهية الفلسفة واضح: إن قضايا الفكر الإيديولوجي هي بالدرجة الأولى قضايا اجتماعية مرتبطة بمنفعة معينة، إذ تنبثق الإيديولوجيا من حاجة عملية وتنتهي بنشاط عملي، وهي ليست وعياً كاذباً دائماً بل قد تنطوي على الحقيقة بمعنى نسي <>. (عطية، 2003، صفحة 55)

إن مجال الإيديولوجية من أشد مجالات الحياة الاجتماعية مرونة، ومن أعقدها احتجاباً وظهوراً -تظهر أو تختفي حسب الحاجة- ومن أوسعها تداخلي مع سائر مجالات الحياة الاجتماعية النفسية والثقافية والسياسية والتربوية والاقتصادية والإعلامية. (نصار ن.، الإيديولوجية على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية ونقدها)، 1994، صفحة 6)

أما الفلسفة فتتسم بالطابع الكوني والشمولي، تعتمد على التحليل والنقد الموضوعي لمختلف الأفكار دون ربطها بأي مصلحة أو منفعة يقول نصار <> إن الفلسفة والإيديولوجية تشتركان في السعي إلى التوجيه الفاعلية الانسانية، لكن الإيديولوجية ترتبط بفاعلية جماعة تاريخية بعينها، بينما تهتم الفلسفة بفاعلية النوع الإنساني بأسره.>> (نصار ن.، الفلسفة في معركة الإيديولوجية (أطروحات في تحليل الإيديولوجية وتحرير الفلسفة من هيمنتها، 1986، صفحة 174)

هذا النوع من التفكير يعتبر عند نصار نقطة أساسية لمعالجة القضايا العالقة والمشكلات الراهنة، بل يذهب إلى أبعد من هذا حين يجعله أساس تحقيق النهضة وأول خطوة تبدأ بضرورة التخلي عن النظر إلى أزمة العرب الراهنة من الزاوية الإيديولوجية.

إن هذا الطرح يوضح أهمية دراسة وتحليل مفهوم الإيديولوجية ومكانتها في مشروع نصار، واستمرت جهوده في نقد الإيديولوجية التي كانت الشغل الشاغل لعمله التحليلي النقدي، الذي يهدف إلى إبداع فلسفة عربية معاصرة تقوم على الإنسان في وجوده الاجتماعي التاريخي. وضرورة الالتجاء إلى الفلسفة لمعالجة القضايا الكبرى التي تنطوي عليها أزممتنا، وإتباع منهج صحيح لممارسة الفلسفة على النحو الذي يقتضيه التطلع إلى نهضة عربية ثانية في إطار التطور الحضاري الذي يشمل العالم. إن العرب ليسوا في حاجة إلى خطاب إيديولوجي عن التراث وإنما إلى إبداع تراث جديد.

لا يمكن تصور هذا المشروع وتحقيقه على الوجه الصحيح من دون تمييز صارم بين الفلسفة والإيديولوجية، لذلك جعل نصار إن اختلاط الفلسفة بالإيديولوجيا يمثل العقبة الثانية في طريق النهوض بعد عقبة الموقف الاتباعي من تاريخ الفلسفة.

وعليه كان لزاماً علينا البحث في حدود علاقة الفلسفة بالإيديولوجية وتمييز ما يمت بصلة لكل منهما في أي منظومة فكرية ثم إن وصف الفكر الإيديولوجي بالمنفعي المصلحي، هل يجعله عامل إفساد للفلسفة؟! لا شك إن هناك إيديولوجيا، وهناك فلسفة والمطلوب منا هو معرفة حدود العلاقة بينهما.

يؤكد نصار إنَّ الإيديولوجيا حتى وإن لم تطلب الحقيقة فلا يعني هذا خلوها من الحقيقة وهذا ربما أخطر ما فيها، وهذا يدل على إنَّ الإيديولوجيا تتحول إلى نوع وشيء من الحقيقة بصورة نسبية، تتغير دائما تتخفّض وترتفع بحسب الوضعية والحاجة. (نصار ن.، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، 1979، صفحة 45)

تداخل الفكر الإيديولوجي بالفلسفي ينتهي بالإخفاق والفشل لأن بعض الإيديولوجيات تحاول فرض نفسها كمطلق ثابت، وبعضها يحاول إحياء القديم وتصويره على أنه الأفضل (زرّوخي، 2013، صفحة 92)، وهذا يعني إنَّ الفيلسوف يفكر بطريقة مغايرة عن تلك التي يفكر بها الإيديولوجي لأن الفيلسوف يرفض إنتقاء الأفكار التي توافق منظومة فكرية معينة وتخدم مصالح إجتماعية محددة دون غيرها. فالإيديولوجي يهتم بألوية الجزئي أي يفكر بمصلحة الجماعة التي يفكر فيها، أما الفيلسوف ينطلق من الخصوصية إلى الكونية، أي يبحث في حقيقة الوجود الإنساني، ويمكن ملاحظة إنَّ أهم فرق بينهما يمكن في المنهج: فالإيديولوجيا معرفة جدلية تتطلب إيمانا فيما الفلسفة معرفة برهانية تتطلب إقتناعا برهانيا وحجاجياً. ثم من حيث الطبيعة الإيديولوجيا تفكير مغلق يخلق لدى المؤمنين به التعصب.

ويذهب نصار إلى إنَّ كل إيديولوجية لها مضامين ميتافيزيقية، وبعضها ما يتعلق بالإنسان والتاريخ فكل إيديولوجية تحمل طابع ديني. (نصار ن.، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، 1979، صفحة 56)

أما الفلسفة منفتحة إنفتاح المعرفة ذاتها تسعى لفهم العالم وتغييره لمستقبل أفضل للإنسان

إن محاولة نصار لتحديد طبيعة المشكلة بين الفلسفة والإيديولوجية تأخذنا إلى التمييز بين العقل والإيديولوجية لأن الحديث عن العلاقة نابع من إدعاء كليهما لذا ميز بين نوعين من العقل (العقل الفلسفي والعقل العلمي) والإيديولوجية لا يهتمها التمييز بين المستويين في حين العقل الفلسفي يعتمد إلى ذلك مما يعني ضرورة التمييز بين الإيديولوجية والعقل. (نصار ن.، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، 1979، صفحة 95)

العلاقة تتخذ شكل صراع وهذا الأخير يرى فيه نصار ضرورة للحياة الفكرية بإعتبار كلاهما يحاول الدفاع عن نفسه، فالإيديولوجية تحاول تفنيد شكوك العقل والعقل يحاول عقلنة كل شيء.

ويوضح لنا نصار طبيعة العلاقة بين العقل و الإيديولوجيا لبناء موقف عقلائي نقدي من هذه العلاقة، من خلال استحضار بعض التصورات والنماذج ومسائلتها، يقترح تحليل ونقد الطرح الهيجلي ثم التصور الماركسي.

أ- الطرح الهيجلي:

أول ما يجدر الإشارة إليه إن هيجل لم يستخدم لفظة الإيديولوجية في كتاباته وكل محاولاته في النظرية الإيديولوجية تمت تحت لفظة الأهواء: أي الغرائز والميول والمصالح التي تتحكم في الأفراد. ويتلخص رأي هيجل حول العقل في فكرتين أساسيتين:

**الفكرة الأولى: ميتافيزيقية وهي إن العقل يحكم العالم والتاريخ.**

أما الفكرة الثانية: أنثروبولوجية وهي إن العقل يتخذ من الأهواء وسيلة لتحقيق ذاته الكلية. (نصار ن.، 1986، صفحة 97)

يبدو الفصل النظري بين العقل والإيديولوجية عند هيجل من خلال تمييزه بين اللاهوت كمصدر المعرفة، حيث تتأتى إنطلاقاً من الإيمان، وبين إن ترتبط المعرفة بالعقل وبالفعل الذي يتجه إلى فهم الواقع فهمًا شاملاً يكون العقل مطية للإيديولوجيا، العقل عند هيجل كلي شامل مطلق يفسر التاريخ، فالتاريخ سيرورة عقلية وإذا عرفنا مع هيجل: >> إن كل ما هو عقلي هو حقيقي وكل ما هو حقيقي هو عقلي << (نصار ن.، 1986، صفحة 99)، يعني هذا إن العقل الهيجلي يعي نفسه بواسطة تاريخ الإنسان.

إن هذا العقل يستعمل الإيديولوجية كمطية لتحقيق مآربه، أي يحكم ويسير العالم والتاريخ بالاعتماد على الأهواء لتحقيق ذاته المطلقة، وهذا الإستعمال للأهواء هو ما يسميه هيجل: >> حيلة العقل << في التاريخ.

ويرى نصار إن الإيديولوجيات كنتيجة حتمية ليست سوى تحقق العقل الكلي، ومنه ينتفي التعارض بين العقل والإيديولوجية ويصبح شيئاً ظاهرياً فقط ويعدو نمو الفكر الإيديولوجي وسيطرته على حياة الجماعات والمجتمعات أمراً جارياً باسم العقل وفي خدمة العقل. (نصار ن.، 1986، صفحة 97)

ويذهب نصار إلى أبعد من هذا في العلاقة بين العقل والأهواء إذ الحيلة التي تعيش فيها ليست حيلة العقل، وإنما هي حيلة الهوى وإذا فحصنا بدقة تصرفات الإيديولوجيات تجاه العقل علمنا إن حيلة الإيديولوجية أشد الحيل تعقيداً (مقورة، 2015، صفحة 169)

إن العقل الذي ينتهي إليه هيجل بتصور نصار هو عقل مطلق شامل كلي ينتج المعرفة والتاريخ، يعبر عن جوهر، وطاقة لامتناهية يقول نصار: >> المغالاة في تعظيم العقل وتقديسه وإعلاء شأن جبروته ليست في نهاية الأمر سوى تصرف إعتقادي <<. (نصار ن.، 1986، صفحة 100)

أي إنَّ تصور هيغل يشكل خطر على العقلانية وبهذا يعلن نصار تهافت أكثر العقلانيات تطرفاً من خلال الحديث عن إنصهارها في بوتقة الإيديولوجيا.

### ب- التصور الماركسي:

يعتبر مفهوم الإيديولوجيا عند ماركس من المفاهيم الشاملة فلا نجد صيغة معينة تحده في مؤلفاته المتعددة، ولكن على العموم إرتبط هذا المفهوم في تشكيله الأساسي بالتفكير في الصراع التاريخي ودور الوعي في التاريخ، وقد قدم ماركس جملة من العناصر التي منحت المفهوم دلالات متعددة بل يعود الفضل إلى ماركس والماركسية في بلورة أغلب المعاني المتداولة في موضوع الإيديولوجيا، ويلح ماركس على ضرورة ربط الوعي الإيديولوجي بصور الصراع الطبقي كما تظهرت في التاريخ. (بلقزير، 2010، صفحة 38)

وقد شهد الفكر الماركسي تحولا في نظريته إلى الإيديولوجية من مرحلة كتاب الإيديولوجية الألمانية، حيث الإيديولوجية هي مجموعة أفكار لتشويه الواقع الاجتماعي وتقويه الصراع الطبقي فيه إلى مرحلة ما بعد كتاب الرأسمال حيث باتت الإيديولوجيا أداة تفسير وتشويه لمسيرة التاريخ الكوني.

ويعرفها ماركس بقوله: >> هي نظام للمفاهيم الاجتماعية التي تعبر عن مصالح طبقية معينة، وتتضمن معايير سلوكية ومبهمات نظر وتقويمات مناسبة << (ميشيل، 2006، صفحة 27) ومعناه إنَّ ماركس يجعل من الإيديولوجية علاقة بين الإنسان وطبيعة حياته المادية، فهي محاولة لفهم تاريخ الإنسان أو تجريده، وهذا التصور يجعلها مجرد تجميع لتصورات إجتماعية لطبقة معينة تعبر عن وضعها الاجتماعي في التاريخ. وتركز الماركسية على الصراع والجدل، الصراع بين الطبقات الاقتصادية في الحياة الاجتماعية، فهي تفرض الجدل على التاريخ بدلاً من إنَّ يكون صادراً من داخله، وبذلك تتحول المادية التاريخية إلى إيديولوجية (ماركسي، صفحة 106) العقل الإشتراكي يصوغ نفسه على أنه الأقدر على حل الأزمة، وأي انحراف للعقل إنما هو منبعث من إيديولوجية الآخر الرأسمالي أو الديني التي تمارس حصاراً ما دامت المسألة لا تتعلق ببنية العقل الإشتراكي.

ومع إنَّ ماركس يصف الفكر الإيديولوجي بالوعي الزائف الذي يشوه الوقائع الاجتماعية، إلا أنه هو نفسه يحاول إخفاء الطبيعة الإيديولوجية البارزة للماركسية التي تقدم نفسها كعلم كامل في أصوله وفروعه، فتنزع نحو مصلحتها بإستعمال المعرفة، هذا الرأي يخالف موقف نصار بالإيديولوجيا يقول متسائلاً: ألم يكن هم ماركس إنَّ تستوعب الطبقة العاملة نظريات عن الرأسمال والرأسمالية؟ (نصار ن.، 1986، صفحة 102)، إنَّ أهم نتيجة للفصل الماركسي بين الإيديولوجيا والعقل العلمي، هي إنَّ الإيديولوجيا الماركسية سمحت لنفسها بإحتكار العلم الحقيقي للتاريخ الاجتماعي وهذه هي الدوغمائية



المتطرفة التي ترفض النقاش، وهكذا فإن التاريخ برأي نصار قادر على الإجابة عن كل الشكوك وإظهار رغبة العقل في السيطرة والذي يعتبر أساساً دافعاً لا علقياً.

يعتبر نصار الماركسية ضحية ما يسميه بـ << التمويه الإيديولوجي >> ويرى أنها قامت على كشفها هذا الأمر من خلال نقدها للإيديولوجيا الألمانية خاصة الهيغلية ولذلك يقدمها كنموذج للتحايل الذي تمارسه الإيديولوجية على العقل رغم إن كتابات ماركس تبدو رافضة للإيديولوجية.

الطرح الماركسي يرى فيه ناصيف مؤسساً على تصور مغاير لحركة التاريخ، ويجعل من الفلسفة شكلاً من أشكال الإيديولوجية، والإيديولوجية ماهي إلا وعي زائف وعي مقلوب أما الوعي الحقيقي فيكمن في النظرة العلمية والسوسيولوجية للحياة الاجتماعية القادرة على إنتاج تصور سليم أما الإيديولوجيا فتنتج فقط أوهاماً. (نصار ن.، 1986، صفحة 102) إن فكرة <<الوعي الزائف>> التي تصف به الماركسية الإيديولوجيا تخالف تصور نصار لأنها تشوه الوقائع الاجتماعية التي يتم التعامل معها وكأن لا صراع طبقياً فيها، ويصف نصار الإيديولوجية الماركسية قائلاً: << إن التفسير الماركسي للواقع الاجتماعي التاريخي على أساس الصراع الطبقي يقوم على فرضيات فلسفية وجودية، معرفية، وعلى إستقراء للواقع التاريخي >>. (نصار ن.، طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع)، 1979، صفحة 49)

وهذا ينطبق على كل الإيديولوجيات، لكن الاختلاف متعلق بالمبادئ الفلسفية، ومكانتها في كل إيديولوجية. فلكل منها منظومة تحاكم بها الواقع الاجتماعي وإذا كانت كل إيديولوجيا تحمل فكرةً فلسفياً فإن الإيديولوجيا الماركسية تفر بالصراع الطبقي كظاهرة اجتماعية تاريخية. وبهذا يمكننا اعتبار الماركسية نموذج الإيديولوجية المتحايلة على العقل تحت شعار رفض الإيديولوجية، لكن هل يمكن فعلياً رفضها، والقول بضرورة أفولها؟.

### 3- ناصف نصار وأفول العقل الإيديولوجي

العقل الإيديولوجي هو مصطلح من وضع نصار ويقصد به آليات الفعل الإيديولوجي، وتندرج أغلب مساهمات نصار في تحليل الإيديولوجيا والعقل الإيديولوجي داخل هذا المجال، إنه عقل منحاز إنتقائي ينتقي الأفكار التي يدافع عنها أو التي يهاجمها، يسخر العقل لخدمة الجماعة ومصالحها، فتستعمل الإيديولوجيا العقل لتمرير خطابها، وترتبه وفقاً لأهدافها، وبقدر تبعية العقل لهذه الإيديولوجيا يكون علمياً أو قومياً... يبقى محكوم بأحكامها، يسير بما حددته له يتقيد بشروطها ويسبح في فضائها. (مقورة، 2015، صفحة 166)

إن نقد الإيديولوجيا من موقع أنها تتحكم في العقل وتوجهه جعل العديد يقر باقتراب نهاية التفكير الإيديولوجي وقد تبلورت هذه الفكرة عند الغرب المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية وسقوط الإيديولوجيتين النازية والفاشية.

ويرجعون ذلك حسب نصار للتطور الحاصل في عصرنا هذا على أساس إنَّ عصر الإيديولوجيات قد ولى ويمكن معالجة أية مشكلة إجتماعية بمعزل عن غيرها بطرائق الخبراء، هذا الزعم يطلق عليه البعض <<موت الإيديولوجيا>> ويفضل البعض الآخر عبارة <<أفول الإيديولوجية>> وهذه العبارات كلها تطلق من قبيل الحلم فلم تشهد إطلاقاً أفول الإيديولوجية بل على العكس رغم التقدم الكبير في علوم الطبيعة والتكنولوجيا والعلوم الإنسانية تفرض الإيديولوجيات نفسها ولا توجد مشكلة إلا ولها جانب إيديولوجي، فهي تعبير من تعبيرات الإنسان الاجتماعي. (نصار ن.، الديمقراطية والصراع العقائدي، 2017، صفحة 11) يرى نصار أنها كالدين وكالفلسفة بدرجة أقل هي تعبير عن حاجة اجتماعية بالمعنى الواسع أي ثقافية ونفسية وسياسية... لا غنى عنها في المجتمعات الحديثة تضرب بجذورها في أعماق النفسي والوعي واللاوعي، لأن الخطاب الإيديولوجي لا يكتفي بالاعتقاد بل يستنفر كل القوى النفسية والفكرية لنصرة الإيديولوجيا. (نصار ن.، الإيديولوجية على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية ونقدها)، 1994، صفحة 39)

ومنه يرفض فكرة نهاية الإيديولوجيا باعتبارها هي ذاتها فكرة إيديولوجية وبذلك يميز بين نهاية إيديولوجيا معينة استنفذت مهامها التاريخية وبين نهاية فكرة الإيديولوجية لأنها تشكل استجابة لحاجات تاريخية.

إن المضمون الصحيح لفكرة نهاية الإيديولوجيات ينحصر في نقطتين أساسيتين هما:

أ- يشهد عالمنا إنهميار الإيديولوجيات الكبرى التي كانت تحرك آمال الشعوب.

ب- تكاثر المشكلات والاشكاليات البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بحيث ينبغي معالجتها بصورة جديدة واقعية. (نصار ن.، الإيديولوجية على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية ونقدها)، 1994، صفحة

(33)

في ضوء هاتين الحقيقتين يتضح إنَّ فكرة نهاية الإيديولوجيا تأخذ معنى محددًا هو زوال حركات إيديولوجية كبرى تغييرية أرادت توجيه العالم وإعادة تشكيله، حيث بدأ التفكير العلمي يفرض نفسه إنتشاراً وتحكما في أنظمة الحكم وأجهزتها، ولكن هذا المضمون لا يعني إنَّ فكرة أفول الإيديولوجية صحيحة، يقول نصار: << ينبغي التنبيه إلى الفرق الكبير بين معنى نهاية عصر الإيديولوجية وبين معنى عصر نهاية الإيديولوجية >>. (نصار ن.، الإيديولوجية على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية ونقدها)، 1994، صفحة 7)

أي ينبغي التمييز بين النقد العقلاني للإيديولوجية وبين نقدها من مواقع تتحكم بها دوافع عاطفية، النقد العقلاني للإيديولوجية يتأسس على الاعتراف بوجوده الفعلي يبحث في أسباب وجودها، أنواعها، وظائفها يفككها، يعمل على كشف ألامعيبها لكن لا يسلم بأفولها.

ينتهي نصار إلى ثلاث نتائج حول موت الإيديولوجيا:

1- فكرة أفول الإيديولوجيا مرتبطة بتغيرات كبيرة على مسرح الصراعات السياسية والإيديولوجية.

2- مصدر هذا التوجه هو جماعات تدعو إلى التخلي عن المبادئ المثلى والتي يعتبرونها وهم، والحل عندهم يكمن في الحكم التكنوقراطي. (نصار ن.، الإيديولوجية على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية ونقدها)، 1994، صفحة 31)

3- الغاية من هذا التصور هو رفض تغيير النظام العالمي الجديد الذي يقوم على سيطرة الرأسمالية وإيديولوجيتها. وعلى هذا الأساس فإن الزعم بنهاية الإيديولوجية هو عبارة عن نقد إيديولوجي ليس له أي مبرر، لذلك فإن نقد نصار للتفكير الإيديولوجي لا يعني نهايته لأن هذا الأخير أوسع من إن يختصر في نظرة معينة ومنه يجب التعامل مع القول بأفول الإيديولوجية من وجهة واقعية علمية بإعتباره قولاً خاطئاً. أي محافظة التعامل مع الإيديولوجية في ظل الديمقراطية على مناعة ضد الأوهام. (نصار ن.، الديمقراطية والصراع العقائدي، 2017، صفحة 13)

وبالتالي يتم مساعدة المجتمعات التي في مرحلة الانتقال إلى الديمقراطية على حسن التعامل مع الإيديولوجيا حسب ما يقتضيه الهدف وظروف الانتقال إليه ومنه فإن شعار نهاية الإيديولوجية ليس سوى خداع الهدف منه بسط سيادة إيديولوجية الأقوى.

#### خاتمة

وفي الأخير نخلص إلى إن نقد ناصيف نصار للتفكير الإيديولوجي كان نقد عقلانياً مؤسساً فرضه السياق العام لفلسفته، فالنقد يمكن المفكر العربي من فهم أسباب التخلف، وهو سمة جوهرية في فلسفة نصار.

إن النقد يفتح باب الحوار، خاصة عند مفكر من عيار نصار، وتحقيق النهضة حسبه يعتمد على ضرورة التخلي عن النظر إلى أزمة العرب الراهنة من الزاوية الإيديولوجية والجزء إلى الفلسفة لمعالجة القضايا الكبرى وبعد البحث في طبيعة الظاهرة الأيديولوجية عند نصار توصلنا إلى مجموعة من النتائج تتمثل في:

\* الإيديولوجيا عبارة عن نسق فكري إجتماعي متكامل يتفاعل مع مختلف مشاكل المجتمع الاقتصادية والسياسية والأخلاقية، يدافع عن مصالح الجماعة ومنافعها.

\* هذا النمط من التفكير يتعارض مع التفكير الفلسفي، بإعتباره تفكير عقلاني غايته الوصول إلى الحقيقة المطلقة و فقط.

\* يلح نصار على أهمية التحليل النقدي للمفاهيم وفي مقدمتها: الفلسفة، الإيديولوجيا، هذا التحليل يوجهنا إلى تكوين إتجاه نظري قادر على استيعاب العلاقات بين المفهومين وفق منهج <<الواقعية الجدلية>>، الذي يقوم على الممارسة لكشف البعد الإيديولوجي في الفعل الفلسفي، ومنه ضرورة التمييز بين الفلسفة والإيديولوجيا، فإذا كانت الأولى تتسم بالطابع الكوني تعتمد على التحليل والنقد، فإن الثانية قضاياها إجتماعية ترتبط بالمنفعة وتنبثق من حاجة عملية. يلح نصار على إن الخلط بين الفلسفة والإيديولوجيا يمثل عقبة في طريق النهضة.

\* إن محاولة نصار لتحديد طبيعة المشكلة بين الفلسفة والإيديولوجية يأخذنا إلى التمييز بين العقل والإيديولوجيا والعلاقة بينهما تتخذ بشكل صراع وهو ضرورة للحياة الفكرية، ولبناء موقف عقلاني نقدي من هذه العلاقة يقترح نصار إستحضار ومساءلة الطرح الهيغلي والماركسي، وينتهي إلى إن العقل عند هيغل يتخذ من الأهواء وسيلة لتحقيق ذاته، وهذا التصور يشكل خطر على العقلانية، أما الطرح الماركسي فيمثل نموذج الإيديولوجية المتحايلة على العقل تحت شعار رفض الإيديولوجية.

\* رفض الإيديولوجية جعل العديد من الفلاسفات الوضعية ترى بأفولها ونهايتها نظراً لتطور العلوم والتكنولوجيا، هذا التصور يرفضه نصار جملة وتفصيلاً، فهناك فرق بين نهاية إيديولوجيات معينة ونهاية فكرة الإيديولوجية في حد ذاتها، والنقد العقلاني للإيديولوجيا يتأسس على الإعتراف بوجودها الفعلي وتفكيك خطابها وتحليلها عوض رفع شعار نهايتها الذي لا أساس له من الصحة

## المراجع

- أحمد عبد الحليم عطية. (2003). طريق الاستقلال الفلسفي باب الحرية (قراءات نقدية في فكر ناصيف نصار الفلسفي. الإتحاد العربي للجمعيات الفلسفية،.

- الشريف زروخي. (2013). العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر (قراءة في مشروع ناصيف نصار. 1 . بغداد: دار ومكتبة عدنان.
- جلول مقورة. (2015). فلسفة التواصل في الفكر العربي المعاصر (طه هبد الرحمان وناصيف نصار بين القومية والكونية). 1 . بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد الإله بلقزيز. (2010). المعرفي والإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. 1 . بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- فادية ميشيل. (2006). الايديولوجية، ترجمة: أمينة رشيد السيد البحرأوي. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
- كارل ماركسي. (بلا تاريخ). بؤس الفلسفة، ترجمة: حنا عبود، مصادر الاشتراكية العلمية. دار دمشق للطباعة والنشر.
- ناصيف نصار. (1986). مطارحات للعقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والإيديولوجية). 01 . بيروت: دار الطليعة للنشر والتوزيع.
- ناصيف نصار. (1994). الإيديولوجية على المحك (فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية ونقدها). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ناصيف نصار. (2017). الديمقراطية والصراع العقائدي. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- ناصيف نصار. (1986). الفلسفة في معركة الإيديولوجية (أطروحات في تحليل الإيديولوجية وتحرير الفلسفة من هيمنتها. 2 . بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ناصيف نصار. (1979). طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي إلى الحرية والابداع). 2 . بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.